الفصل السابع

كراهية أمريكا وتجاوز جدار الكراهية

في فيلم ماثيو كاسوفيتز "الكراهية" (La Haine) (1995)، يكتشف ثلاثة شبان يعيشون في مشروع إسكاني باريسي (مساكن شعبية) معنى الكره. المجموعة المتعددة الثقافات - الأول، فينز، يهودي، متقلب المزاج، جدي، وينتمي إلى الطبقة العاملة؛ والثاني، سعيد، عربي، مغرم باللهو والمزاح؛ والثالث هوبير، ملاكم أفريقي أسمر وانطوائي - ليس لديها الكثير لتفعله سوى تمضية الوقت، واغترابها يرسخ إحساسا حقيقيا بالقرابة بين أفرادها. المراهقون الثلاثة عاطلون عن العمل، وليس لديهم المال، والأهم من ذلك أنهم يفتقدون أية احتمالات مستقبلية لتحسين أوضاعهم. وهكذا يتسكعون في المنطقة القريبة من مركز المدينة مثل باقي الشبان المهمشين، هائمين على وجوههم دون هدف عبر الشوارع الأحياء. لكن للتبطل عواقبه وتبعاته، خصوصا عندما تعتبرك الشرطة مصدرا محتملا للنشاط الإجرامي.

الشاغل الأساسي لكاسوفيتز، الذي فاز بجائزة الإخراج في مهرجان كان، هو إظهار أن حالة التهميش ذاتها شكل من

أشكال العنف؛ وأنها تؤدي إلى أنماط أخرى منه، وتتغذى على ذاتها، إلى أن تنفلت من عقالها في نهاية المطاف وتخرج عن حدود السيطرة. أبطال الفيلم ليسوا أفرادا سيئين أو عنيفين على نحو خاص. بل مجرد بشر يحاولون أن يكونوا بشرا، بكل قواهم وحسناتهم ومعايبهم. لكن إثنيتهم ومظهرهم، وطبقتهم وخلفيتهم الاجتماعية، وضعتهم في فئة الشريحة الدونية والعنيفة. إذن، تلك هي الطريقة التي يعاملهم من خلالها المجتمع عموما، ورجال الشرطة - الذين لا يترددون في تعذيب الفتية - على وجه الخصوص. وبالمقابل، فإن مشاعر الكراهية لدى الشبان الثلاثة عبارة عن نتاج مركب لحالة التهميش الاقتصادي التي يعيشونها، والتعامل معهم على أساس ثقافي وعنصري، وتفسيرهم الخاص لوجودهم.

وفي حين أن العالم هناك لا يصفح عن سلوكهم، إلا أن يتعاطف بالتأكيد مع ورطة العصابة في "الكراهية". لأن معظم العالم الثالث (النامي) أخضع دون رحمة للتهميش الاقتصادي والظلم الثقافي. الشخصيات الخيالية في الفيلم وجهت كراهيتها غالبا نحو رجال الشرطة، الذين كانوا ممثلي المؤسسة الاستبدادية والسبب المباشر لمعاناتهم في آن معا. أما العالم الحقيقي فيوجه كراهيته نحو أمريكا، القوة العالمية المفرطة في

قوتها، التي تتصرف مثل الشرطة في فيلم "الكراهية"؛ إمبراطورية ليس لها شبيه في التاريخ، مرغت بصورة منهجية أنوف كل "الآخرين" في الطين.

لكن لا يوجد أحد يريد فعلا أن يكره الشعب الأمريكي. فمن ذا الذي يريد أن يوجهه سهام كرهه إلى دينزيل واشنطن أو سيدني بواتيه، هيل بيري أو ووبي غولدبيرغ، محمد علي كلاي أو تايغر وودز، جون شتاينبك أو آرثر ميللر، غور فيدال أو سوزان سونتاغ؟ ما يكرهه معظم الناس هو "أمريكا"، الكيان السياسي المؤسس على العنف الرسمي الخاضع لسلطة الدولة، والمعايير المزدوجة، والتهوس بالذات والمصلحة الشخصية، والسذاجة اللاتاريخية التي تساوي بين الذات والعالم. وفي الحقيقة، هنالك العديد من الأسباب الواضحة التي تدعو إلى كره أمريكا، أكثرها شيوعا ووروداً ثلاثة: التأييد الأمريكي لإسرائيل، التي يعتبرها الكثيرون في العالم العربي مستعمرة تسلحها وتمولها الولايات المتحدة؛ الدعم الأمريكي للأنظمة الديكتاتورية؛ وعمليات التدخل الأمريكي المتكررة في دول العالم النامية. لكن هذه الأسباب بسيطة وواضحة. علاوة على ذلك، هنالك العديد من الأسباب التي تكرر ذكرها مرارا وتدعو إلى كراهية أمريكا تأتي غالبا مغلفة ضمن مقادير

متساوية من الحب. على سبيل المثال، تثير الثقافة الشعبية الأمريكية، بدءا من هوليود وانتهاء بموسيقى "البوب"، مشاعر الحب والكره على حد سواء، وكأن العاطفتين جزآن منفصلان من كل واحد. وبالتالي فإن أمريكا غالبا ما تغري وتخيف في ذات الوقت.

ومن أجل تقدير مدى وحجم الكراهية، نحن بحاجة لتجاوز نطاق الواضح الجلي. هذا ما حاولنا القيام به في هذا الكتاب. نحتاج أيضا لأن ندرك أن كره أمريكا لا يقتصر على جماعات معينة مثل المسلمين، أو "الأصوليين"، أو المفكرين الأوروبيين اليساريين. لم يتبق تقريبا أية يقينيات كونية شمولية في عصرنا المابعد حداثي هذا، لكن كره أمريكا يقترب من بلوغ مرتبة الرأي الوجداني الشمولي: إنه الدينامية التي توحد بين الأصوليين والليبراليين، والعرب وشعوب أمريكا اللاتينية، والآسيويين والأوروبيين، بل يجمع حتى الكنديين، الذين يخيم ظل أمريكا عليهم، مع بقية العالم. ولا بد من وجود أساس منطقي حقيقي وخفي لهذه الظاهرة العالمية.

الحدث في فيلم "الكراهية" يجري في بيئة معادية. فقد صور كاسوفيتز فيلمه في الضواحي الإسمنتية التي تتضح بالوحشية والبربرية. ولم تستعرض هذه المناظر الخاوية عداءها

للشبان الثلاثة فقط، بل جعلت من المستحيل بالنسبة لهم التنفس، والوجود، والنجاح والعيش كبشر - حرمتهم من أن يكونوا أنفسهم. لقد خلقت الحكومات والشركات الأمريكية، طيلة عقود من السنين، سياقا عالميا مشابها في كآبته وخوائه وقسوته، عالما يجعل الحياة صعبة، وأحيانا مستحيلة، بالنسبة للعديد من الثقافات والمجتمعات. وبالتالي، فإن لكراهية أمريكا مرسى أكثر عمقا؛ فهي متموضعة في العجز المفروض بالقوة على المجتمعات والثقافات الأخرى بحيث يحرمها من الوجود ككيانات حرة وكاملة، والعيش كما ترغب أن تعيش. تقييد الثقافات هذا ليس مقتصرا على ميدان السياسة - فهو يمتد إلى مجال مفهومي أوسع نطاقا؛ وهنا يمكن العثور على الأسباب الأربعة الرئيسة وراء الاعتراض على الولايات المتحدة:

1 - السبب الأول وجودي الولايات المتحدة جعلت الوجود صعبا جدا على الشعوب الأخرى. على الصعيد الاقتصادي، يعتبر ذلك حقيقة صارخة بالنسبة للغالبية العظمى من سكان العالم. ومثلما رأينا، شيدت الولايات المتحدة اقتصادا عالميا لزيادة ثرائها دوما وأبدا وإخضاع المجتمعات اللاغربية لحالة من الفقر المدقع. "الأسواق الحرة" مجرد تعبير مهذب عن حرية حركة رأس المال

الأمريكي، والتوسع الذي لا تحده حدود للشركات الأمريكية، والانتقال الحر (وحيد الاتجاه) للسلع والخدمات من أمريكا إلى باقي دول العالم. الدولار الأمريكي هو العملة الرئيسة للاحتياطي النقدي العالمي، والوسيلة التي يحتاجها الجميع لدفع ثمن الواردات الأجنبية، وليس ثمة قيود على قدرة الولايات المتحدة على طبع عملتها لتمويل العجز في ميزانها التجاري مع بقية دول العالم. ونظرا لأن عمليات الإقراض الدولي تتم بالدولار، فإن الدول المقترضة التي تطحنها الأزمات ويرهقها العجز في الميزان التجاري على الدوام تضطر لتحمل أعباء الديون الدولارية بأكثر من طاقتها على السداد. وحين نضيف إلى كل ذلك سيطرة الولايات المتحدة على المؤسسات المالية الدولية مثل صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، ومنظمة التجارة الدولية، نعرف كيف تقوم آليات ووظائف الاقتصاد العالمي بتهميش الدول الأقل تطورا في العالم. نحن نتقدم باتجاه عالم تزود أسواقه في ميادين أساسية مثل الرعاية الصحية والاجتماعية، والتعويضات التقاعدية، والتعليم، والغذاء، والماء، بواسطة الشركات الأمريكية وتخضع لتحكمها وهيمنتها. إن القدرة على تطوير وتنمية الدول من أجل توفير حرية الوصول الشاملة إلى الخدمات الاجتماعية الأساسية، تعرضت للتآكل بشكل منهجي وعنيف وقاس. ولهذا السبب ارتفعت معدلات الفقر المطلق

خلال العقود الماضية: الفجوة بين الأغنياء والفقراء وصلت الآن إلى مساحة لم يكن أحد يتخيلها. والحقيقة أن أمريكا تأخذ لقمة الخبز من أفواه شعوب دول العالم النامية.

على الصعيد السياسي، هنالك عمليتان متزامنتان تقلصان خيارات وحريات بقية دول العالم. عملية "التضخم"، أي اتساع مدى تأثير ونفوذ أمريكا - عبر الأنظمة الاقتصادية العابرة للحدود الوطنية ورأس المال المتعدد الجنسيات، إضافة إلى تجمع عوامل القوة المستمدة من المؤسسات التي يفترض بأنها جمعية مشتركة مثل البنك الدولي وصندوق النقد الدولي ومنظمة التجارة الدولية، في يد الولايات المتحدة - تتزامن في واقع الأمر مع عملية "الدمج" التراتبية لبقية العالم. فالعالم يتعرض إلى عملية دمج ليأخذ شكل هرم صلد مدرع بالحديد. وأولئك القابعون في قاع الهرم ليسوا مجرد ضحايا للتهميش والإقصاء على المستوى الاقتصادي فقط، لكنهم خاضعون للاحتواء السياسي أيضا. ولذلك فإن وجودهم السياسي معرض لنفس أخطار واقعهم الاقتصادي.

علاوة على ذلك، قامت العولمة بقيادة الولايات المتحدة بتقليص الحيز الثقافي. وحتى أكثر الشعوب تمتعا بالمزايا الاقتصادية والسياسية تسعى للتعبير عن نفسها وتحقيق ذاتها

ثقافيا. لكن العالم المشكل على هيئة هرم لا يفسح مساحة كبيرة لوجود الثقافات الأخرى، ناهيك عن السماح للثقافات اللاغربية بالتعبير الكامل عن الذات والازدهار والنماء. بكل بساطة، ليس ثمة مجال متروك لوجود الاختلاف وفقا لشروطه وتصنيفاته الخاصة.

وهكذا أصبح الوجود بحد ذاته - ماديا / جسديا، وسياسيا، وثقافيا - مشكلة بالنسبة للعالم النامي. وعلى شاكلة أبطال فيلم "الكراهية"، يملأ الغضب كيان شعوب العالم الثالث بسبب ظرفها الوجودي. وتعتبر أمريكا المتواطئ الرئيس على/ والمصدر المستمر لورطتها المأزقية؛ ولهذا توجه عداءها نحوها.

2 - السبب الرئيس الثاني للاعتراض على أمريكا سبب كوزمولوجي. فتبعا للبرهان الكوزمولوجي التقليدي على وجود الله، المستمد أصلا من أرسطو، يعتبر الخالق مسبب كل شيء؛ ولهذا سميت النسخ الأولى من هذا الدليل البرهاني حجج "السبب الأول". في عالم اليوم المعولم، تعتبر أمريكا السبب الرئيس لكل شيء. لا شيء يتحرك على ما يبدو بدون موافقة أمريكا؛ ولا يمكن حل شيء بدون تدخل أمريكا. فهي وحدها القادرة على حل صراع بين الفلسطينيين والإسرائيليين؛ وبتدخلها وحده

يمكن التوصل إلى نوع من الحل للخلاف بين الهند وباكستان حول كشمير؛ وتدخل العراب الأمريكي في ايرلندا الشمالية هو الذي رتب التوصل إلى حل سياسي. وبدون مصادقة أمريكا، لا تساوي معاهدة كيوتو حول انبعاث ثاني أكسيد الكربون قيمة الورق الذي كتبت عليه؛ وبدون إيماءة رأس من أمريكا، لا يتحرك شيء في منظمة التجارة الدولية أو البنك الدولي؛ ولولا أمريكا، لما عادت الأمم المتحدة أمما متحدة. على المستوى العالمي، أمريكا هي السبب الأول والسبب المستمر في آن معا.

تتصل الأسس الكوزمولوجية للسخط والاستياء أيضا بـ"تعملق" أمريكا ذاته. إذ يشير قول صيني مأثور إلى أن أطول الأشجار تجتذب أخطر وأقوى الرياح خلال الإعصار. وباعتبارها شجرة تلامس فروعها كل ركن من أركان الأرض، تعتبر أمريكا هدفا طبيعيا للعواصف. لكن ما يضاعف ذلك هو الغطرسة المتفاخرة التي تعتبر جزءا لا يتجزأ من التركيبة الكوزمولوجية التي لا تراها أمريكا. الإمبراطوريات الغربية - الرومانية، الإسبانية، البريطانية - كانت مهتمة باستدامة وتعزيز سيطرتها على السكان من رعاياها، لكن أمريكا نقلت هذا المبدأ إلى مستوى كمي جديد: الإمبراطورية الأمريكية هي استعمار للمستقبل يصبح الآن مستهلكا كليا للمكان والزمان

كليهما - إعادة كتابة التاريخ، تغيير مادة الحياة ذاتها في تركيبتنا الجينية، تغيير الأنماط المناخية، استعمار الفضاء الخارجي، وفي الحقيقة تغيير سيرورة الارتقاء النشوئي ذاته! هذا القدر الهائل من الغطرسة هو الذي يجفل، بل يرعب، معظم سكان العالم. إذا ارتفعت الكوابح والقيود، فما الذي يمنع الولايات المتحدة من الاستهلاك الفعلي لسكان العالم من غير الأمريكيين؟ وحين يُجند العالم داخل البنية الكوزمولوجية لأمريكا، فلسوف يختفي من الوجود تماما. حين كان المراهقون الثلاثة في فيلم "الكراهية" يركبون قطار الأنفاق، شاهدوا لوحة إعلانية كتب عليها: "العالم عالمك". لكنهم بدلوا "الكاف" بـ"هم" ليؤكدوا على أن "العالم" لا يشملنا جميعا. ويبدو أنه عالم أولئك الذين يملكون احتمالات وإمكانيات غير محدودة، الذين أعادوا بناء العالم ليناسب نظرتهم الكوزمولوجية الخاصة.

3 - السبب الرئيس الثالث لمشاعر العداء لأمريكا هو سبب أنطولوجي - أي يتصل بطبيعة الكينونة ذاتها. مرة أخرى يعيدنا هذا إلى الأدلة البرهانية المعيارية على وجود الله. البرهان الأنطولوجي على وجود الله، الذي ينسب إلى الأسقف والفيلسوف والقديس انسلم (1033 - 1109)، يسير على النحو

التالي: الله أكمل الكائنات؛ وهو أعظم كمالا عندما يوجد منه عندما لا يوجد، لذلك فالله موجود. البرهان دائري بالطبع. الحجج والبراهين الأنطولوجية تستنتج بالاستدلال أن الشيء يوجد لأن عدة مفاهيم تعالقت بطرائق معينة. الخير والشر متعالقان في علاقة تقابل. وبالتالي إذا وجد الشر فلا بد من وجود الخير أيضا. وعلاقة أمريكا بالعالم تعتمد على هذا المنطق الدائري الأنطولوجي: لأن "الإرهاب" شر فإن أمريكا خيرة وفاضلة؛ و"محور الشر" بموضع. ضمنيا. أمريكا وحلفاءها على "محور الخير". لكن ذلك لا يعني مجرد تقابل ضدي ثنوي: العنصر الأنطولوجي، طبيعة الكينونة الأمريكية، تجعل أمريكا الأمة الخيرة / الفاضلة الوحيدة. إنها خطوة صغيرة قبل الافتراض بأنها الأمة المصطفاة من الله والمختارة من التاريخ. كم من مرة سمعنا القادة الأمريكان يعلنون أن الله معهم؛ أو أن التاريخ قد نادى على أمريكا لتتصرف؟

لكن الاستيلاء على الخير ونسبه للذات، ثم ارتكاب أعمال الشر، يظهرك بمظهر المنافق أمام الآخرين. يلاحظ بروس تون، الأستاذ في قسم التخطيط المديني والإقليمي في جامعة تينيسي (بمدينة نوكسفيل) أن "الناس في مختلف أرجاء العالم يسألون باستمرار عن السبب الذي يجعل أمريكا تقول شيئا وتفعل

نقيضه؛ ولم لا تطبق المعايير التي تريد فرضها على الآخرين على الولايات المتحدة ذاتها. وكيف يمكن لها الزعم بأنها مورد الصلاح ومنهل والخير وينبوع الفضيلة بينما تزدري بالفقراء وتحرمهم من حقهم الأساسي في الغذاء والماء؟ المرضى المحتضرون نتيجة إصابتهم 'بالإيدز' في مناطق جنوب الصحراء الإفريقية يتساءلون عن السبب الذي يجعل أمريكا تملك ما يكفي من المال لصنع الكمبيوترات العملاقة المتفوقة والقاذفات 'المتخفية'، لكنها لا تقدر على مساعدتهم بعقار 'ايه زد تي' (AZD) (ازيدو ثيميدين) وغيره من الأدوية. الناس الذين يعيشون في/ وحوالي الغابات المطيرة الاستوائية لا يمكن أن يفهموا انتقاد أمريكا لأسلوبهم في إدارة هذه الموارد الحاسمة في أهميتها بالنسبة لحياتهم، بينما تستمر في التخلص من النفايات في بيئتهم الطبيعية وتصر على تدميرها، بدءا بالهواء الذي يتنفسونه، وصولا إلى زيادة انبعاث الغازات التي ترفع درجة حرارة الأرض، مثل ثاني أكسيد الكربون. ولا يمكن للأوروبيين أن يسبروا أغوار السبب الذي يحول بين الولايات المتحدة ودعم الحماية البيئية للكرة الأرضية، ومعاهدات حظر الألغام الأرضية، أو وضع شروط صارمة للتحكم بالأسلحة البيولوجية والنووية، أو لماذا تلح بإصرار على بيع الأوروبيين اللحوم والحبوب الملوثة بالهرمونات نتيجة الهندسة الوراثية. الروس

والأوروبيون الشرقيون لا يفهمون لماذا تلح أمريكا على فرض الإجراءات الاقتصادية التي تفاقم حالة الظلم وعدم المساواة تبعا لكل معيار عرفه البشر، على دولهم. الكنديون يأسفون لتأثير الثقافة الأمريكية على مجتمعهم"[1].

ثم هنالك عناصر النفاق في المجتمع الأمريكي ذاته. محاكمة او.جي. سيمبسون سلطت الضوء على الكذب المأْسَس الذي يشكل قاعدة قانون المحاكمات الأمريكي، لكي يراه العالم برمته. المحاكمة جذبت انتباه العالم أيضا إلى مشاعر الغضب التي تعتمل في صدور الأمريكيين الملونين على حكومتهم، وشكوكهم العميقة بنزاهة النظام القضائي الأمريكي. كما أظهرت قضية اتهام الرئيس كلينتون بإساءة التصرف مدى نفاق المؤسسة السياسية: فالمحافظون من السياسيين، الذين اتهم العديد منهم "بسوء السلوك" الجنسي، فقدوا ضمائرهم في محاولة الاغتيال السياسي التي قاموا بها. أما كارثة الانتخابات في فلوريدا فقد أبرزت نفاق أمريكا فيما يتعلق بالديمقراطية: فعدم حساب صوت كل مواطن يعتبر خطيئة فظيعة فاضحة لو حدثت في ديمقراطيات العالم الثالث الوليدة. لقد لاحظ سكان العالم أجمع آنئذ أن المحكمة

الأمريكية العليا قررت نتيجة الانتخابات من خلال تلفيق الأسباب الداعية لعدم إعادة حساب كافة الأصوات.

العالم برمته يتساءل باستمرار عن السبب الذي يجعل عامة الشعب الأمريكي، في دولة تمتلك أكثر الأنظمة التعليمية والمؤسسات العلمية تقدما في العالم، على مثل هذه الدرجة المتزايدة من الجهل بشؤونه؟ فهم لا يعرفون أسماء زعماء دول العالم الأخرى، حتى الدول الحليفة في الغرب. ويجهلون مواقعها على الخريطة. ولا يعرفون تاريخ العالم. ويبدو أن اهتمام المواطن الأمريكي ينحصر في سيارته، وبيته الثاني، وعدم دفع الضرائب، وأسعار "البنزين". لماذا يميل الأمريكان نحو الشك الجواني بالآخرين، ويظهرون مثل هذا الإهمال لحاجات ورغبات وآمال بقية سكان العالم؟ لماذا؟

بالطبع لا يمكن لأمريكا، ككيان سياسي، ولا للعديد من الأمريكان، أن يسمعوا مثل هذه الأسئلة. فقد تكون الولايات المتحدة مجتمعا مفتوحا، لكنها دائرة مغلقة أيضا. فاهتمامات وهموم وأصوات العالم الخارجي لا يمكن أن تخترق الأسوار الأنطولوجية الحصينة حول أمريكا. ما الذي بمقدور الآخرين - الذين أُقصوا أنطولوجيا من فئة الأخيار - أن يقولوه للأخيار، الأبرياء، المتمسكين بأهداب الفضيلة، الذين

اصطفاهم الله واختارهم التاريخ؟ وإذا افترضنا أن أمريكا تفكر بهم، ما هي الصيغة الأخرى المتوفرة سوى القول الفصل بأن ما يصلح لأمريكا يصلح لزوما للجميع؟ ليس من المفاجئ أن يتدثر الأمريكيون إلى الأبد بعلمهم، رمز طيبتهم وفضيلتهم القويمة وصوابية طبيعتهم الأنطولوجية الخيرة. ونظرا لأن العلم يمثل كل ما هو خير وفاضل وقويم فيجب أن يستدعي - بنظر الأمريكيين - الاحترام والتقدير من كافة الجهات والأطراف. لكنه بالنسبة لباقي العالم مجرد خرقة من قماش، تلف أفكارا وأباطيل مضللة عن البراءة والصلاح والفضيلة، مغلفة بالغطاء الشفاف لرأسمالية الشركات الأمريكية. وسائل الإعلام في الولايات المتحدة تسقط النفاق الأمريكي على ميزان العالم، وتلك صيغة مناسبة لحلقة مفرغة من الكراهية. الكره لا يولد إلا الكره: المزاعم الافتراضية الأنطولوجية عن الطيبة والصلاح والفضيلة تغذي كراهية تنطلق من قواعد أنطولوجية، مما يؤدي إلى خاتمتها المحتومة.

4 - السبب الرئيس الرابع لمشاعر العداء تجاه أمريكا يتعلق بالتعريفات. فأمريكا ليست فقط الدولة الوحيدة المفرطة القوة - بل أصبحت السلطة المرجعية للتعريف بالعالم. فهي التي تعرف ما هي الديمقراطية، والعدالة، والحرية؛ ما هي حقوق الإنسان وما

هي التعددية الثقافية؛ من هو "الأصولي"، و"الإرهابي"، و"الشرير". وباختصار تحدد ما معنى "الإنساني". أما باقي العالم، بما فيه أوروبا، فيجب أن يقبل ببساطة هذه التعريفات ويسلم زمام القيادة لأمريكا (وهذا ما تفعله بريطانيا في معظم الحالات بتفان وإخلاص استثنائيين). لكن أمريكا تعرف وتحدد كل هذه الأشياء بتعابير غريبة شاذة - بلغة الهوية الذاتية لأمريكا، وتاريخها، وتجربتها، وثقافتها، وعلى الأغلب، بلغة المصلحة الأمريكية الذاتية. وهكذا، حين قال الرئيس بوش، مثلا، في خطابه عن حالة الاتحاد عام 2002، إن "أمريكا ستقود وتسود عبر الدفاع عن الحرية والعدالة لأنها من القيم الصحيحة والصادقة والثابتة لكل الناس في كل مكان"، فإنه اعتبر من القضايا المسلم بها أن أفكار أمريكا عن الحرية والعدالة هي الوحيدة الموجودة. وليس ثمة مجال لأن تفسر هذه القيم وتمارس بطرائق مختلفة؛ ولا معنى لحقيقة أن تاريخ وتجربة الثقافات الأخرى قد ولدا مفاهيمها الخاصة عن الحرية والعدالة.

يمكننا رؤية ذلك بوضوح فيما يتعلق بقضايا حقوق الإنسان. فالمفهوم الغربي الليبرالي عن حقوق الإنسان يساوي بينها وبين الحريات الفردية السياسية والمدنية فقط، لكن الولايات المتحدة قلصت نطاقها وأعادت تعريفها عبر علاقتها بقوى السوق

و"التجارة الحرة". وبالرغم من الجهود المضنية التي بذلتها الدول النامية طيلة أكثر من عقدين من السنين، ما زالت الولايات المتحدة ترفض الاعتراف بأن الحق بالطعام، والمسكن، والصحة العامة الأساسية والحفاظ على الهوية والثقافة، هي أكثر أهمية من المحافظة على قوى السوق. وكانت قمة التنمية الاجتماعية التي عقدتها الأمم المتحدة في آذار/ مارس 1995، بمثابة محاولة لدمج هذه الهموم والاهتمامات وإعادة صياغة "أجندة" حقوق الإنسان. لكن، ومثلما هي الحال في كافة المحاولات المشابهة، سادت "قوى السوق العالمية" على كل ما عداها نتيجة إلحاح الولايات المتحدة. وكما لاحظ الخبير الماليزي المتخصص بالعلوم السياسية وحقوق الإنسان، تشاندرا مظفر: "ما فائدة النضال من أجل حقوق الإنسان، بالنسبة لمليارت البشر الذين يطحنهم الفقر في الجنوب، إذا لم تكن تعني تحريرهم من غائلة الجوع، والتشرد، والجهل، والمرض"[2].

لكن التعريف الأمريكي لحقوق الإنسان ليس ثابتا لا يتغير؛ بل هو رجراج متحرك. وهكذا، تعتبر الولايات المتحدة كفاح المسلمين في شرق تركستان ضد الصين بمثابة "قضية تتعلق بحقوق الإنسان"، لكنها ترفض اعتبار نضال الشيشان المسلمين ضد روسيا مسألة تتعلق بحقوق الإنسان - وفي الحقيقة،

يشكل المسلمون أغلبية في الشيشان وشرق تركستان، ويقاتلون في سبيل الاستقلال في كلتا المنطقتين. وعلى وجه العموم، تجاهلت الولايات المتحدة انتهاكات حقوق الإنسان في الصين، لأنها شريك تجاري متزايد الأهمية. لكن حين كانت حقوق الملكية الفكرية الأمريكية في خطر، انتقلت حقوق الإنسان بسرعة إلى الواجهة، بل تم التهديد بحرب تجارية لحث الصين على التعاون. وما إن ضمن التعاون، حتى انعكست السياسة رأسا على عقب: الولايات المتحدة تدعم الآن الحكومة الصينية ضد المسلمين في شرق تركستان. وبسبب هذا التعريف الضيق والطبيعة الرجراجة، كرر المفكرون في الدول النامية وصف أفكار الولايات المتحدة حول "حقوق الإنسان" بأن أكثر الأشكال ارتقاء وتطورا من الإمبريالية الأمريكية المفرطة القوة. فهي تحدد وتعرف حقوق الإنسان كما ترغب، ثم تستخدم اللغة الوجدانية/ العاطفية لحقوق الإنسان كعصا لضرب أية دولة لا تذعن لسياستها الاقتصادية.

الفكرة العالمية التي جرى التبجح بها كثيرا حول "حرية الصحافة" تعامل بطريقة مشابهة. فحين يتعلق بالأمر بالدول الأخرى، تعرف بوصفها حاجة عالمية شمولية. أما عندما تؤدي حرية الصحافة إلى انتقاد أمريكا، تصبح أمرا تخريبيا خطيرا.

وهكذا بذلت الولايات المتحدة قصارى جهدها لمنع قناة الجزيرة الفضائية، وهي القناة الفضائية المستقلة الوحيدة في العالم العربي، من بث الأخبار من أفغانستان ومارست ضغوطا هائلة على الحكومة القطرية لـ"كبح جماح" الجزيرة، بل وصل بها الأمر في نهاية المطاف إلى حد قصف مكتبها في كابول. في أوائل عام 2002، أغلقت الولايات المتحدة المجلة الفلسطينية الأسبوعية المستقلة "أخبار الخليل". وأوضحت السلطة الفلسطينية أن "المخابرات المركزية الأمريكية قد أوصت بإغلاق المجلة بسبب انتقادها الصريح لإسرائيل ولسياسة الولايات المتحدة تجاه الشعب الفلسطيني"[3]. وأعلن رئيس التحرير وليد عمايرة: "من المؤسف أن تقوم الولايات المتحدة التي تقدر قيمة حرية الصحافة في وطنها بالاستئساد على السلطة الفلسطينية ودفعها لكبت الحرية في فلسطين. ماذا حل بالتعديل الأول للدستور الأمريكي، أم أنه لا ينطبق على غير الأمريكيين؟"[4].

الطريقة الفريدة المنطلقة من المصلحة الذاتية التي تعرف بها أمريكا وتعيد تعريف حقوق الإنسان، ثم تستخدمها كأداة في سياستها الخارجية، تبعث رسالة مزدوجة إلى العالم، فهي تشير من جهة إلى أن التقيد بالشروط التي تفرضها حقوق الإنسان يلزم الدول الأخرى عموما لا أمريكا؛ في حين أنها ترسل من جهة

ثانية إشارة واضحة للدول النامية: يجب تبني السياسات الاقتصادية التي توصي بها أمريكا، حتى على حساب حقوق الإنسان. ليس من المفاجئ أن تولد هذه المقاربة قدرا كبيرا من الكراهية للولايات المتحدة.

سلطة التعريف والتحديد تمتد أيضا لتشمل التمثيل: أمريكا تحدد الطريقة التي ينبغي عبرها رؤية وتصوير وتمييز "الآخر". الولايات المتحدة هي الراوي الذي يقص الحكايا إلى العالم. ومعظم القصص الذي يحكيها إما مستمدة من تجاربها الخاصة، أو تعطى - إن استولت عليها من الثقافات الأخرى - سياقا أمريكيا خاصا. مرجعية تعريف وتحديد الآخرين تبعا للمدركات والاهتمامات والمصالح الأمريكية كثيرا ما تؤدي إلى أبلسة مجموعات كاملة من الناس. لنفكر مثلا بالطريقة التي يعتبر من خلالها كافة العرب "أصوليين"، أو يتهم الذين يضعون سيطرة الشركات الأمريكية على العلم موضع المسائلة بالعداء للعلم، أو أولئك الذين يعترضون على السياسة الأمريكية الخارجية بأنهم "مفلسون أخلاقيا"، أو"عدميون"، أو "حمقى"، مثلما رأينا في الفصل الأول.

تشغّل الولايات المتحدة سياستها الخارجية وتتصل بباقي دول العالم على أساس القاعدة المكوَّنة من التصنيفات المفهومية

الأربعة التي ناقشناها آنفا. وغدت هذه حقائق بدهية بالنسبة لأمريكا: فهي مكملة لهويتها الذاتية تماما "كالحقائق البدهية" - مثل "كل البشر ولدوا متساوين" - التي تحدث عنها الآباء المؤسسون (لكنهم قدموا أيضا ضمانا دستوريا لرفضها عند الممارسة!). وبقدر ما يستطيع البشر التفكير بالمفاهيم النظرية، والتحرك ضمن إطار المعتقدات النموذجية، فإن هذه التصنيفات غدت بالنسبة لأمريكا طبيعية مثل عملية التنفس. ولهذا السبب يبتهج الأمريكيون حين يستهلكون معظم موارد العالم، ويصرون على الحصول على النفط بأسعار زهيدة، وينتظرون أن يزودوا بتشكيلة متنوعة لا حد لها من الأغذية المصنعة الرخيصة الثمن - لأن أمريكا هي الكون. ومثلما كانت كل القصص، وكافة التجارب الإنسانية، إرهاصا مبشرا بتأسيس الولايات المتحدة، كذلك فإن كافة أشكال المستقبل هي في الجوهر مستقبل الولايات المتحدة. وفي التحليل النهائي، تنظر أمريكا إلى بقية سكان العالم مثلما نظرت إلى الهنود الحمر: "أطفال الطبيعة" الذين يمكن تلقينهم وضمهم إلى الحضارة حسب متطلبات ذلك المستقبل الأمريكي.

ليس من المفاجئ أن يسعى العالم ليكون مختلفا. والمجتمعات المختلفة تجد اعتراضات مختلفة في فئات المفاهيم

الأربعة. على سبيل المثال، تلعب الأسباب الوجودية دورا مهما في تأجيج مشاعر الكراهية لأمريكا في أفريقيا والدول الأكثر فقرا في آسيا وأمريكا اللاتينية. في حين ولدت الأسباب الكوزمولوجية مقتا شديدا لها في أوروبا، خصوصا في أوساط اليساريين وحماة البيئة. وتعتبر الأسباب الأنطولوجية مسؤولة عن مشاعر العداء لأمريكا في العالم الإسلامي، إضافة إلى أوروبا. لقد ولدت سلطة أمريكا في تعريف المفاهيم والأفكار الرئيسية استياء هائلا في الصين والهند وبين المسلمين عموما. وحين تؤخذ بصورة جمعية، تضمن الخطط المفهومية الأربع أن يكون العداء لأمريكا عالميا شموليا مثل الرغبة في استنشاق الهواء النقي الخالي من التلوث.

من الواضح أن استمرار هذا الكره ليس في مصلحة العالم. لكن هل يمكن تجاوز أسواره؟ الكراهية، كما حاولنا أن نثبت، هي جملة من الآراء والأفكار المصحوبة بتحيز عاطفي/ وجداني يشتغل في علاقة مستمرة، كجزء من سياق التفاعل. لكنها تبسط الأمور دوما. وبالتالي، لدينا وجهة نظر العالم الأقل تطورا التي تعتبر أمريكا الشيطان الأكبر، الدولة المفرطة القوة، العنصر المسبب لكل ما هو خطأ وباطل، التي تمنع في كل مكان حق تقرير المصير والحلول الإنسانية العقلانية

المسؤولة. ولدينا من وجهة نظر أمريكا، الأجوبة الوحيدة لمستقبل البشرية: الحرية، الديمقراطية، التحرر، حرية الكلام والتعبير، قوى السوق الحر، كلها تتعرض لهجوم الأعداء الأشرار الذين تجاوزوا نطاق الإقناع الأخلاقي وبالتالي يجب استئصال شأفتهم وإبادتهم للحفاظ على الخير والطيبة والصلاح، وهي فضائل معرضة إلى ما لا نهاية للهجوم بسبب انفتاحها وصدقها. تلك هي نسخة "كاريكاتورية" عن الواقع الحقيقي يقدمها الطرفان معا. لكن في عالم تهيمن عليه المقتطفات الموجزة من المقابلات، وفترات الانتباه والتركيز القصيرة، والصحافة الخاضعة للسيطرة الصارمة، تزداد النسخة "الكاريكاتورية" قوة باطراد لأنها تبدو قصة استحواذية ومعقولة وقابلة للتصديق وتفسر كل شيء. الترياق هو أن تتعلم حب التعقيد وترفض أن ترعبك قصص الغيلان والأشباح، والمسوخ المختبئة تحت السرير. وعلى رأي أحد الحكماء: ليس لدينا "شيء نخافه سوى الخوف ذاته". الغرض الكلي من القصص المبسطة المسطحة هو أن تجعلنا، وتبقينا، خائفين مذعورين يرعبنا العالم المعقد الكبير الهائل القابع هناك.

تصنع الكراهية من الناس الذين تشمل اختلافاتهم عنا القيم المشتركة، والطموحات والمشاعر الإنسانية المتشابهة،

مسوخا لهم كتلة صلبة وصلدة وجامدة. لكن بمقدورنا، من أجل تجاوز القوالب المنمطة، أن نبدأ بتفكيك واحد من أثمن وأغلى المثل الإنسانية - كل الناس ولدوا متساوين - وفهمه بطريقة أكثر تعقيدا. "كل الناس ولدوا متساوين" حقيقة "بدهية" وخالية من المعنى في آن إن بقيت "بدهية" عوضا عن أن تستكشف، وتوضع محل المساءلة، ويسمح لها بالتعبير عن الاختلاف والتنوع. بالفعل، كل الناس ولدوا متساوين، لكنهم عاشوا تحت ظروف يتأصل فيها عدم المساواة بين البشر، وهذا ميراث التاريخ الحقيقي. المساواة في الفرص، وحق الجميع بالتساوي بأن يكونوا أنفسهم، والحرية المتساوية لتعريف لمعتقداتهم كما يفهمونها والعيش تبعا لها، كل ذلك يتطلب أكثر من مجرد معاملة كل فرد بالتساوي. الخطاب الليبرتاري الطنان حول الحقوق المتساوية والبدهية التي تشير إلى أن الناس ولدوا متساوين، يمكن أن يكون نظريا تجريديا، يفتقد الليبرالية، والتسامح، والمساواة، مثله مثل أي نظام أيديولوجي. العالم الذي يولد فيه الناس متساوين يمكن أن يكون عالم الاختلاف، حيث للتنوع حقوقه أيضا. ومن أجل أن يشعر الجميع بأنهم يعاملون بنزاهة وعدالة ومساواة، من الضروري التكيف مع الواقع ورؤية نفس المثل الأعلى، ونفس الغاية، يتحققان عبر وسائل مختلفة في أماكن مختلفة. وسيكون هذا العالم غير

قابل لأن يعرف بعبارة وجيزة، عالم يعتمد على ضرورة معرفة بعضه بعضا، والأهم من كل ذلك، أن يكون مستعدا للقبول بوجوب إرجاء الحكم على الناس الآخرين.

تشتغل الكراهية وتسود عند الشعور بعدم الأمان وسيطرة جنون الارتياب. فهي تخلق خطابا سياسيا مؤسسا على الدفاع عن الذات، والضربات الاستباقية، والمواقف العدوانية. وحين يهيمن الإحساس بعدم الأمان وجنون الارتياب، يصبح الحوار "حوار طرشان"، وتحكم التفاوضَ والمشاورة الخطبُ الرنانة المتبادلة، والشتائم والإهانات، والذم والقدح واللوم. الكراهية تولد عوالم تتوازى في تبرير الذات وذهنية "الإقناع بالقنابل". والإحساس بعدم الأمان وجنون الارتياب يجعلان الضربة الاستباقية الخيار الأول في ساحة سياسية تمتلك كل صفات وسمات ملعب الأطفال الخاضع لأخلاقيات استئساد القوي على الضعيف. فهل يوجد في مثل هذا العالم أي أمل بتجاوز سور الكراهية؟ ثقافة العنف والخطاب السياسي التهييجي المعتمد على مبدأ "الإقناع بالقنابل"، ينبغي مقاومتهما ومعارضتهما في كل مكان. لكن يستحيل معارضتهما بدون الالتزام الحقيقي بوسائل التواصل البديلة. ينبغي أن تصبح الميادين والمؤسسات السياسية فاعلة

ومؤثرة وسريعة الاستجابة، وقادرة على الفعل والتصرف، ومبادرة إلى تبني أسلوب التفاوض والتسوية والحل الوسط.

الثقة نقيض الكراهية. والمشكلة الراهنة تتمثل في أن العالم فقد ثقته بأمريكا، وبرغبتها أو قدرتها على استخدام قوتها الهائلة بصورة مسؤولة، أو استخدامها في الواقع لتحقيق أهداف لا تتصل بالدوافع الأنانية، وإدراك الصالح العام بوصفه شيئا يختلف عن المصلحة الذاتية. وباعتبارها دولة مفرطة القوة تطغى على العالم عسكريا وسياسيا واقتصاديا وثقافيا، تحظى أمريكا بحضور حقيقي يقتحم حياة كل الأمم والشعوب في العالم. وما تمتلكه من ثروة ووفرة هما نتيجة علاقاتها مع باقي دول العالم. ولذلك لا يمكن لأمريكا أن تختار الارتباط أو الانفصال عن عواقب وتبعات النظام العالمي الذي يحفظ ويديم أسلوبها الحياتي. "لا ضرائب بدون تمثيل 'نيابي'"، هكذا صرح المتمردون الساخطون في المستعمرات الإنكليزية الذين أشعلوا الثورة الأمريكية. وللعالم سبب وجيه لقول الشيء نفسه. وكلما زاد لجوء أمريكا إلى أساليب ملك إنكلترا جورج الثالث (1738-1820، الذي أججت سياسات حكومته مشاعر الاستياء والسخط في المستعمرات الأمريكية، مما أدى إلى اندلاع الثورة عام 1776) في علاقاتها مع باقي دول العالم،

كلما زادت مشروعية الثائرين من الناقمين والساخطين عليها، في عالم يرغب بالانفصال عنها.

مشاعر الكراهية تدوم وتتأبد بفضل "المعرفة الجاهلة" العنيدة. أما تجاوز حاجز الكراهية وتعبيراته الضلالية المعاكسة فهو مهمة المعرفة الصحيحة، وإعادة التفكير بحدود ومقيدات ما تعلمناه وعرفناه، ومراجعة معلوماتنا الظنية. لقد ظل الغرب طيلة قرون يؤكد للمسلمين والهنود والصينيين وغيرهم بأن حضاراتهم تقليدية، صَّيرتها نظرتها التقليدية للعالم باطلة وهزيلة وعاجزة. وفي الحقيقة، أصبحت حضارة الغرب نفسه، وخصوصا أمريكا، حضارة تقليدية، متخمة بكل تصلب وجمود وتشدد ونفاق الإحساس بصوابيتها الأصلية، الإحساس الذي ظل بكامل الجاهزية لإدانة الحضارات الأخرى. التحدي الذي يواجهه الجميع هو إحداث النقلة المعرفية من التراثوية السلفية المتزمتة - التفكير بمشكلات العصر بواسطة آراء الأسلاف الصالحين - إلى التراث الحي، واستخدام القيم والمفاهيم التي تحظى بالإكبار والإجلال كمنظومات نقدية قائمة على التساؤل والتقصي والوسائل التي تم تكييفها وتعديلها لأحداث التغيير الهادف المطلوب. إن المجادلات والحوارات والأفكار المتعلقة بتجديد التراث في العالم اللاغربي تكون عادة غائبة عن

النظر والسمع، لكن لديها الكثير لتعلمه للغرب. التراثوية التقليدية الميتة تغلق العقول، وتحجر الأفكار، ويمكن أن تؤدي إلى تدمير وإبطال وإضعاف نفس القيم التي استحضرتها باعتبارها الأكثر قداسة. يجب أن يكون الغرب عموما، وأمريكا على وجه الخصوص، على مستوى التحدي، هذا العيب في الشخصية يتبدى في أمريكا أكثر من أي مجتمع غربي آخر.

أبغض تصرفات "المعرفة الجاهلة" هو الفشل في استقصاء التاريخ ورفض الاعتراف بأن الأفعال التي ارتكبت بحق الآخرين باسم الفضيلة قد سببت أضرارا فادحة. إن إعادة كتابة التاريخ لا يعني محو كل شيء لنبدأ صفحة جديدة بيضاء؛ وفي الحقيقة هنالك طرائق يتبعها هوس الحداثة البعدية بإعادة كتابة التاريخ، تسعى لسحب الاعتراف بالتاريخ كلية، بدلا من التعامل مع المشكلات التي ورَّثها لعالم اليوم. ومثلما لا نستطيع الاعتماد على البنى الفكرية وقيود ومحددات السلف الصالح لحل معضلات اليوم، بل يجب أن نخضع أفكارهم لأساليبنا الجديدة في التفكير والنقاش والنقد، كذلك ينبغي علينا حل المشكلات الموروثة المتأصلة في طرائقهم غير المعصومة عن الزلل وأفعالهم وأقوالهم الناتجة عن منظومتهم الاعتقادية. كلنا خطاؤون، أخطأنا بحق الآخرين وتعرضنا لأخطائهم. هذا لا يعني

أن علينا التخلي عن التقصي والبحث وإطلاق الأحكام لتحديد أفظع الانتهاكات المرتكبة. ومن المؤكد أنه لا يوجد مسوغ ولا منطق في الامتناع عن فعل شيء إزاء العواقب والتبعات.

الفقر واليأس يفاقمان الشعور بالإحباط. لكن الإرهاب ليس سلاح الضعيف على الدوام. فغالبا ما يكون سلاح من يعاني العزلة والاستلاب، إنه محاكاة ساخرة للقوة، الجانب المعكوس من العقيدة القائمة على مبدأ القوي وحده على حق. ليس هذا مبررا للإرهاب. لكنه يطالب بأن نكون على استعداد لإدانة الاستخدام الصارخ للقوة، والافتئات على حقوق الآخرين في كافة الأحوال والأوضاع، تماما مثلما نفعل في حالة الإرهاب. والذريعة الباطلة التي تبرر سقوط ضحايا من المدنيين في الحرب على الإرهاب، عبر القول "إن الحرب أمر فظيع ولابد من مقتل الأبرياء في الحرب، للأسف"، تماثل في باطلها تقديم الحجة على أن جميع الأمريكان يعتبرون أهدافا مشروعة نتيجة العواقب الوخيمة للسياسة الخارجية الأمريكية. وفي هذا العالم الذي تخضع فيه الحياة لازدواجية في المعايير، يجري التعامل مع الموت أيضا تبعا للمعايير المزدوجة. لقد عمي الجميع عن الحقيقة الوحيدة التي يجب أن نعترف بها: الألم والمعاناة لا يختلفان بين مكان وآخر. لا يوجد ضحايا نقبل سقوطها وأخرى نرفضه، ولا

توجد حياة يمكن التفريط بها أو القبول بخسارتها. إن السماح بسيادة مثل هذه العقيدة الخبيثة هو بالضبط ما يجعل الأعمال الإرهابية وممارسة إرهاب الدولة أمرا ممكنا. وإذا كان الإرهاب محاكاة ساخرة للقوة، فلا يمكن وضع حد له عبر استخدام أساليب القوة.

لا توجد حلول ثابتة وعاجلة. فالأمر ليس مجرد تغيير بضع سياسات في بضعة أماكن. أولا، ستكون هذه بمثابة مسكنات؛ ربما تكسب الوقت لكن لا تمنع من حدوث أعمال إرهابية جديدة. ثانيا، حتى تغيير بضع سياسات في بضعة أماكن ليس عملية سهلة. إذ إن أكثر السياسات وضوحا، كدعم أمريكا لإسرائيل على سبيل المثال، قد ثبت أنها من أصعب وأعقد المشكلات على الإطلاق. ومن الوهم الظن بأن التغيير سيكون سريعا، أو يسيرا، أو غير مؤلم، وحتى البداية الصادقة للعملية لا يمكن أن تضمن الأمن والأمان. لكن القبول بتحليل وتقصي المشكلة التي طرأت على الطريقة التي نتعايش عبرها في هذا العالم يمكن أن يثبت على الأقل التزامنا بالعمل من أجل التغيير. وبدون الاستعداد والرغبة في التفكير، والتعلم، والإصغاء، واحترام الفوارق الحقيقية فيما بيننا، لا يمكن صنع سياسة أفضل، أو إحداث تغيير فاعل وهادف.

من العيوب الرئيسة في فيلم "الكراهية" رفضه السماح لأبطاله ببعض المشاركة مع الآخرين في سلوكهم. فهم يرونهم بمثابة غرباء / خارجيين تبعا لمعاييرهم وتعابيرهم الجامدة الصلبة - حتى أولئك الذين يحاولون مد يد العون اعتبروا أعداء. والذين يساوون بين كافة الأمريكيين ودولتهم مذنبون بنفس الجرم. فمن الضروري تقدير حقيقة أن الولايات المتحدة بلاد شديدة التعقيد؛ وأن التجربة مع "الأمريكي" تتم على الأرجح بطرائق مختلفة من قبل شعوب وجماعات تتباين بتباين العرق، والخلفية الإثنية، والأسلاف الذين تحدرت منهم. ومن المؤكد أن التجربة تختلف حين يكون المرء أمريكيا عنها حين يكون صينيا، أو ألمانيا، أو روسيا. إذن، الجواب لا يكمن في كره أمريكا، ومعارضة استخدامها، أو سوء استخدامها للقوة. فقد كان ذلك، وما يزال، ذريعة تبريرية كبرى. وقد دفعت هذه الذريعة التبريرية المعتدلين، والمنطقيين، والمهتمين في الدول النامية إلى التخلي عن العملية السياسية والابتعاد عن النشاط الاجتماعي نتيجة الاعتقاد الراسخ بعدم إمكانية تحقيق تغيير مهم. وفي حين تبقى الأغلبية الصامتة صامتة، مهما كانت وجاهة أسبابها، فإنها سلمت الزمام والفعل إلى المتطرفين.

يوجد العديد من التنويعات والدرجات فيما يتعلق بالتورط في التطرف المتنامي باطراد. هنالك نزوع للتطرف في العالم الإسلامي وغيره من مجتمعات العالم الثالث، وهنالك ميل للتطرف في الولايات المتحدة. لكن الانسحاب من العملية السياسية ليس مشكلة تقتصر على العالم الثالث وحده. فهو يحدث في أمريكا أيضا. والضغوط التي تمارسها مختلف المصالح الشخصية المتنافسة في الولايات المتحدة ليست جدلا سياسيا، بل هو مزاد في ماخور. فالسياسة الخارجية بدون تدقيق وتفحص لصناديق الاقتراع تتحول إلى "وصفة" ناجعة لطغيان السلطة الاستبدادية التي تصل إلى الحكم عن طريق الانتخابات المزيفة. وإذا لم يكبح جماح إساءة استخدام القوة في بلاد تسمي نفسها المنارة الوهاجة للحرية والديمقراطية، فليس ثمة أمل كبير في سيادة المشورة الحصيفة حين تنعدم الديمقراطية والحرية. ليس هذا مسوغا تبريريا لعدم اتخاذ الإجراء المناسب، في أمريكا أو سواها، لجعل السياسة عملية وثيقة الصلة بموضوعها، وخاضعة للمحاسبة، وسريعة الاستجابة. إن الامتناع عن الانخراط في حل مشكلة أمريكا - في العالم عموما وفي الولايات المتحدة ذاتها - يسلم راية النصر للمتطرفين، الذين يجيبون بالخطاب الوحيد الذي تفهمه أمريكا على ما يبدو:

العنف. لقد ساهمنا جميعا في خلق عالم تحكمه شريعة المسدس بدون ضوابط ولا قيود.

في أمريكا أيضا أصوات تعبر عن الضمير الإنساني بالطبع، وبنياتها الأصغر حجما، وجمعياتها المنشقة، والمعارضون من مثقفيها وكتابها ومفكريها تشغلهم الحالة المأزقية الصعبة التي يعيشها العالم، ويسعون للحد من القوة المفرطة لأمريكا وإمبرياليتها. وفي الحقيقة، استشهدنا عامدين وأشرنا إلى بعض من هؤلاء في فصول الكتاب، كبينة جوهرية دامغة تثبت أن أمريكا ليست كتلة صلبة جامدة أيضا. لكن قرارنا بالتركيز على المنتقدين الأمريكان لأمريكا يمضي مسافة أبعد. أولا، يشير إلى أن هناك جماعات جديدة من الأنصار والمؤيدين يمكن إنشاؤها عبر الحدود الوطنية والثقافية، وبدائل تحل محل المواجهة المباشرة الخطيرة المعتمدة على أساليب استخدام القوة المفرطة. هنالك خيارات أكثر عددا من تلك التي وصفها جورج بوش وحددها على طريقة "الخط المرسوم على الرمال".

ثانيا، وحتى الأهم، تتواجد المشاكل القائمة بين أمريكا وباقي العالم داخل أمريكا أيضا. فأمريكا ليست العالم، ولا يمكن لها أن تكونه - وهذا جزء من الجواب عن كل المشكلات. أمريكا ذاتها تقاسي من التشظي والمشاكل

والانقسام المتزايد إلى جماعات ومجتمعات محلية متباعدة لها أفكارها ومصالحها واهتماماتها المتباينة، وتعاني أزمة هوية على نفس خطوط التصدع والقضايا التي تؤثر في علاقاتها مع باقي العالم. ولقد أشرنا إلى تحسر ارثر شليسنجر على "تفكيك وحدة أمريكا". إذ لاحظ السياسيون والمعلقون تباعد الهوة المتسعة بين وجهتي نظر الثقافتين - الليبرالية والمحافظة - حول العالم، الأمر الذي يؤدي إلى جر الأمة نحو اتجاهين متعاكسين حول قضايا عديدة، من الإجهاض إلى الصلاة في المدارس. لقد قمنا بمعاينة نهضة التعليم المؤسس على التفوق الثقافي الإفريقي كواحد من العديد من التبدلات الجوهرية التي طرأت على رؤية ثقافية تعددية تستهدف إعادة تقييم الهوية. وهناك انتشار للميليشيات المسلحة القائمة على سياسة ضمان البقاء الذاتي التي تؤسس قواعد لها في جمهوريات مصغرة في البراري الأمريكية المقفرة، وهي تعتبر الحكومة الأمريكية عدوا للحرية، وتوجه نحوها بكل حماس سهام كراهيتها؛ وكما أشرنا، فإن فلسفة المنادين بالبقاء الذاتي المستقل هي التي حرضت الهجوم الإرهابي في مدينة اوكلاهوما. كل هذه عبارة عن مشكلات مشابهة تتطلب نفس الحلول العلاجية التي ناقشناها في معرض حديثنا عن علاقات أمريكا بالأمم والثقافات الأخرى فيما وراء الشواطئ الأمريكية. يتوجب على أمريكا فعل الكثير كي

تفعّل ديمقراطيته، وتتصالح مع ذاتها، وتنضج هويتها الذاتية، مثلما ينبغي عليها التفاهم مع باقي دول العالم.

يبدأ فيلم "الكراهية" ويختتم بقصة رجل يسقط من ناطحة سحاب. وظل يقول وهو يهوي "الأمور على ما يرام حتى الآن، الأمور على ما يرام حتى الآن". ويبدو أن الفيلم يقول: لا تهم كيفية السقوط، ولا كيف حدث وانتشرت مشاعر الكراهية. المهم حقا هو كيف تحط على الأرض. إن مفتاح المستقبل المعقول القابل للتحقيق لنا جميعا يكمن في تجاوز حاجز الكراهية. ونظرا لأن أمريكا هدف ومصدر كراهية العالم، يجب عليها تحمل مسؤولية نقلنا جميعا خارج أسوارها. أمريكا بحاجة لأن تخرج نفسها من شرنقة علمها الذي لفته حولها، لتصلي مع القديس فرانسيس•:

يا إلهي، امنحني ما لم أسع إليه أبدا
أن يواسيني الناس كما أواسيهم
ويفهموني كما أفهمهم
ويحبوني كما أحبهم من صميم روحي[5].

• قديس أسيسي، وهي بلدة في إيطاليا تقع إلى الجنوب الشرقي من بيروجيا.